أما الأسلوب الثاني من أساليب البيان؛ فهو المجاز، وفيه قال الناظم:

.... * .....ثُمَّ المَجَازُ فَافْهَمَا

مُفْرَدٌ اوْ مُرَكَّبٌ وَتَارَهْ(ةً) * يَكُونُ مُرْسَلًا أَوِ استِعَارَهْ(ةً)

يُجْعَلُ ذَا ذَاكَ ادِّعَاءً أَوَّلَهْ * وَهْيَ إِنِ اسْمُ جِنْسٍ اسْـتُعِيرَ لَهْ

أَصْلِيَّةٌ أَوْ لاَ فَتَابِعِيَّهْ(ةٌ) * وَإِنْ تَكُنْ ضِدًّا تَهَكُّمِيَّهْ(ةٌ)

هذا الباب من أهم أبواب علم البيان على الإطلاق، نظرًا لكثرة مسائله في التفسير، والتوحيد والفقه وأصوله. وهو أيضًا من أمتع أبواب علم البيان.

والمجاز باختصار شديد: توسع في العربية باستعمال ألفاظها، وجُمَلِها؛ في غير أماكنها الأصلية، لإضفاء مزيد من الجمال والتأثير والإيجاز، بشرطين اثنين - حمايةً للعربيةِ من الفوضى- هما: وجودُ عَلاقةٍ بين المعنى الأصليِّ، والجديد، وقرينةٌ تدلُّ على المعنى الجديد.

أمثلة:

قال الله تعالى: (فتحرير رقبة) (مجاز مرسل مفرد)

تعرَّضَ لِيْ السحابُ وقد قَفَلنا * فقلتُ إليك إنَّ مَعِيْ السَّحَابا (مجاز بالاستعارة مفرد)

قال سعيد بن جبير رحمه الله: .... (مجاز مرسل مركب)

أنت ترقم على الماء (استعارة تمثيلية)

وقبل أن نتعرف على المجاز؛ لا بد من معرفة ما يقابله، ألا وهي الحقيقة.

فالحقيقة في اصطلاح أهل البيان: ما استُعمِلَ على أصلِه عندَ واضعِه.

وهي خمسة أنواع: حقيقةٌ لغوية، وشرعية، واصطلاحية خاصة، واصطلاحية عامة، والخامسة؛ هي الحقيقة العقلية(إسناد الفعل أو شبهِه؛ لما هو له)، وتقدمت في علم المعاني.

أما الحقيقة اللغوية؛ فهي: الكلمة المستعملة في الشيء الذي وضعت له عند أهل اللغة. مثل: الصلاة للدعاء، والسرقة لأخذ المال خُفية، والإيمان للتصديق، وأسَد للسبع، وسِكِّين لآلة القطع، وهكذا.

وأما الحقيقة الشرعية: فهي الكلمة المستعملة في الشيء الذي وضعت له عند أهل الشرع. كالصلاة، والحج، والزكاة، والصوم بتعريفاتها الشرعية، والسرقة لأخذ المال خُفية من حرز، أو لجحود المالِ بعد استعارته، والإيمان للتصديق والاعتقاد والعمل، ونحو ذلك.

وأما الحقيقة الاصطلاحية الخاصة: فهي الكلمة المستعملة في الشيء الذي وضعت له عند أهل فنٍّ ما. كالفاعل؛ عند أهل النحو، والثقةِ عند علماء النفس، والتوحيدِ، والمصطلح. (وتوصف بأنها حقيقة عرفية خاصة ناقِلُها مُتعيِّن، وهم أهل الفن).

وحقيقة اصطلاحية عامة: وهي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح عامة الناس. نحو: الدابة. فهي عند العامة: ذوات الأربع من الحيوانات المركوبة(الخيل والبغال والحمير والإبل). بينما هي عند أهل اللغة: اسم لكل ما مشى على الأرض، (والله خلق كل دابة من ماء....). (وتوصف بأنها حقيقة عرفية عامة، ناقلها غير متعيِّن).

والحقائق الشرعية والاصطلاحية الخاصة والعامة؛ لا بد أن تكون مشتقة من أصل وضعها اللغوي.

عرفنا الحقيقة فإلى معرفة المجاز:

أما المجازُ؛ فهو في اللغة العربية: الممرُّ. مِن جُزَت الطريقَ أجُوزُه، إذا تعدَّيتُه.

وفي اصطلاح أهل البيان؛ سَمَّوا به اللفظَ الذي يُعدَل به عن أصله، لأنهم جازُوا به موضعَه الأصلي. مثال: رَعَتْ الماشيةُ الغَيثَ.

ثم إن المجاز عند البيانيين؛ قسمانِ: مفردٌ، ومركَّبٌ. وكلٌّ منهما؛ نوعان: استعارةٌ، ومرسلٌ. وسوف نتحدث الآن فقط؛ عن قسم المجاز المفرد بنوعيه؛ الاستعارة، والمرسل.

ولنبدأْ بتعريف المجاز المفرد:

فما هو المجاز المفرد؟ ولماذا سُمِّيَ مفرَدًا؟

المجاز المفرد: كلمة استعملت في غير ما وُضِعَتْ له أصلًا، لوجود علاقة بينهما، مع قرينةٍ دالة على عدم إرادة المعنى الأصلي.

وله تعريف مختصر: المعنى الذي يفيده اللفظ بالقرينة.

وسُمِّيَ مفردًا: لأنه كلمة واحدة فقط، كما في التعريف أعلاه. أي ليس جملة. فالمجاز إذا كان جملة؛ سنسمِّيه فيما بعدُ: مجازًا مركبًا.

شرح التعريف:

قولنا: (استعملت في غير ما وضعت له أصلًا)؛ أي: عند المتكلم. فقد يكون المتكلم لغويًا(دابة)، أو فقيهًا(صلاة)، أو تربويًّا(عالـمًا نفسيـًّا)(ثقة)، أو محدثًا (ثقة)، أو نحويًّا(ضمير)، أو رياضيًّا(البسط والمقام)،... إلخ.

وقولنا: (على وجه يصح به ذلك الاستعمال)؛ أي: لعَلاقة ومناسبة بين المعنى المنقولِ عنه(الأصلي)، والمعنى المنقول إليه(المجازي). فإذا انعدمت العَلاقة؛ فلا مجاز. كقولك: أعطني هذا الخاتم، وأنت تشير إلى الكتاب. لكن لو قلت: أعطني سلاحي فثَمَّ عَلاقة. واختيار العَلاقة فنٌّ.(انظرُ إلى الكتاب – مثلًا – وعَلاقته بي، أهي عَلاقة الإنسان بالروح، أو بالصديق، أو بالسلاح، بالغذاء، أختار أفضلها بالنسبة لي ثم أطلقها على الكتاب).

ولم نحدد العَلاقة في تعريف المجاز المفرد، ليشمل التعريف نوعي المجاز المفرد(الاستعارة والمرسل)، وفي تعريفهما؛ سوف نعطي كلَّ نوعٍ منهما عَلاقة خاصة به.

وقولنا: (مع قرينة..)؛ القرينة في المجاز: علامة يجعلها المتكلم دليلًا على أنه أراد باللفظ غيرَ ما وُضع له. فالقرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي، نحو: (يجعلون أصابعهم في آذانهم) والمقصود أناملَهم، والقرينة المانعة من المعنى الحقيقي للإصبع؛ هي الآذان.

وقيدنا القرينة بكونها مانعة، لنخرج الكناية، فإن قرينتها غير مانعة من المعنى الأصلي، وستأتي.

عَرَفْنا المجازَ المفرد، ولكن لم نتعرف على نوعيه: مجاز الاستعارة، والمجاز المرسل. فما هما؟

حسنًا، لِنبدأْ بمجاز الاستعارة. تأمل في تعريف المجاز المفرد – وقد مَرَّ بنا – عبارةَ: (لوجود عَلاقة بينهما).

فنقول: إذا كانت العَلاقة مشابَهةً؛ فسوف نُسمِّي المجازَ استعارةً، أو مجازًا بالاستعارة.

إذًا تعريف مجاز الاستعارة: استعمال اللفظ في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة(بين المعنى المنقول عنه، والمعنى المنقول إليه)، مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الأصلي (صارفة).

وضابط المجاز المفرد بالاستعارة: تشبيهٌ؛ حُذف منه أحدُ طَرَفَيه(المشبه في التصريحية، والمشبه به مع ذكر لازمه في المكنية)**، وأداةُ الشبه، ووجهُ الشبه، نحو: (رأيت أسدًا يحمل سيفًا).**

وأركان المجاز المفرد بالاستعارة ثلاثة: مستعار منه، وهو المشبه به، ومستعار له، وهو المشبه، ومستعار، وهو اللفظ المنقول.

مثال: رأيت في المعركة أسدًا يحمل سيفًا.

استعملنا لفظ (أسدًا) المنقول عن معناه الحقيقي، لعلاقة المشابهة بينه، وبين المعنى المنقول إليه، وهو الرجل الشجاع، والقرينة الصارفة (يحمل سيفًا).

وأصل هذا التركيب: رأيت في المعركة رجلًا يحمل سيفًا كالأسد في الشجاعة. وهذا التركيب تشبيه، مكتمل الأركان ويسمَّى (مرسلًا مفصلًا) كما مر بنا. **وحتى يكون مجازًا بالاستعارة؛ حذفنا المشبه (رجلًا)، وهو أحدُ ركنَي التشبيه، وأداةَ الشبه (الكاف)، ووجهَ الشبه (في الشجاعة). وأين أركان الاستعارة الثلاثة؟**

(الحيوان الشجاع المشبه به): مستعار منه، و(الرجل المشبه وهو غير مذكور في التركيب): مستعار له، و(لفظ أسد): مستعار.

مثال آخر: دخل رسول الروم على سيف الدولة الحَمَداني، فقال المتنبي:

وأَقبلَ يمشيْ في البساطِ فما دَرَى * إلى البحرِ يَسعَى أم إلى البدرِ يَرتقِي

استعملنا لفظ (البحر) المنقول عن معناه الحقيقي، لعَلاقة المشابهة بينه(وهو العطاء ونسميه في الاستعارة الجامع، وهو ما يعبر عنه في التشبيه بوجه الشبه)**، وبين المعنى المنقول إليه، وهو الأمير الكريم، والقرينة الصارفة (يمشي في البساط).**

وأصل هذا التركيب: (إلى رجل كالبحر في الكرم). وهذا التركيب تشبيه، مكتمل الأركان ويسمَّى (مرسلًا مفصلًا) كما مر بنا. **وحتى يكون مجازًا بالاستعارة؛ حذفنا المشبه (رجل)، وهو أحدُ ركنَي التشبيه، وأداةَ الشبه (الكاف)، ووجهَ الشبه (في الكرم).**

وأين أركان الاستعارة الثلاثة؟ (البحر الحقيقي المشبه به): مستعار منه، (الرجل المشبه وهو غير مذكور في التركيب): مستعار له، و(لفظ بحر): مستعار.

وأسميناه مجاز استعارة؛ لأننا استعرنا لفظًا؛ لننقله من معناه الأصلي؛ إلى المعنى الجديد، لشَبَهٍ بينَهما، كالأسد في الشجاعة والبحر في الكرم.

أين الجمال في مجاز الاستعارة؟

الجمال في الاستعارة؛ هو أنك جعلتَ المشبهَ فردًا من أفراد المشبهِ به، وتجاهلتَ وجهَ الشبهِ، وأداتَه، بل تناسيتَ أسلوبَ التشبيه مِن أصلِه. فإذا قلتَ: رأيتُ أسدًا في المعركة، فأنت تقصِد فردًا من أفراد ذلك الجنس من الحيوان القويِّ الشجاع، وليس شبيهًا به.

هذا مكمن الإبداع فيه، بخلاف التشبيه، فإنك في التشبيه مهما بالغت؛ فلا بد فيه من ذكر المشبه والمشبه به، وهذا اعترافٌ بالتبايُنِ بين ركنَيِ التشبيه.

انتهينا من مجاز الاستعارة، المستوى الأول.

(من أنواع الاستعارة من حيث المشبه والمشبه به ما يعرف بالاستعارة التصريحية والمكنية، وكذلك من أنواع الاستعارة من حيث جمود واشتقاق اللفظ المستعار ما يعرف بالاستعارة الأصلية والتبعية، ومن أنواع الاستعارة من حيث ذكر ما يلائم الطرفين أو أحدهما ما يعرف بالاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة. وهذه يستحسن دراستها في المستوى الثاني من علم البيان).

وإلى المجاز المرسل:

كما مرَّ بنا في تعريف المجاز المفرد عبارةِ (لوُجودِ عَلاقة بينهما)؛ نقول وبالله التوفيق:

إن كانت العَلاقة غيرَ مشابَهةٍ؛ فسوف نُسمِّي المجازَ مرسلًا، ونقول في تعريفه:

الكلمة المستعملة في غير معناها الأصلي لملاحظة عَلاقة غيرِ المشابهةِ مع قرينةٍ دالةٍ على عدمِ إرادة المعنى الأصلي.

وبالتأمل ستجد أن تعريف المرسل والاستعارة في المجاز المفرد واحد، والفرق العَلاقة.

مثال: (وينزِّل لكم من السماء رزقًا).

استعملنا كلمة (رزقًا) في غير معناها الأصلي وهو (العطاء)، ووضعناها موضع الغيث، وذلك عندما لاحظنا عَلاقةً بين الرِّزق والغيث، ليست عَلاقةَ مشابهةٍ، ولكنْ عَلاقةُ سببٍ بمسبَّب، مع قرينة تدل على أن مرادَنا الغيثُ، لا العطاءُ، وهذه القرينةُ هي كلمةُ السماء.

وأسميناه مرسلًا؛ لإطلاقه عن التقيُّد بعَلاقة واحدة، إذ العلاقة الواحدة؛ لا تكون إلا في المجاز بالاستعارة، وهي علاقة المشابهة.

وللمجاز المرسل نحوُ عشرين عَلاقةً. منها: السببية، والمسبَّبية، والكلية، والجزئية، والحالِّـيَّة والمحَلِّـيَّة، وباعتبار ما كان، وباعتبار ما يكون، وغيرُها، واختيار العَلاقة فنٌّ لا يُدرِكُه كلُّ متكلم. وإليك أمثلة:

عَلاقة السببية: (له أيادٍ عليَّ سابغةٌ * أُعَدُّ منها ولا أُعَدِّدُها)، ورعت الماشية الغيث.

عَلاقة المسببية: قول الله تعالى: (وينزل لكم من السماء رزقًا).

عَلاقة الكلية: قول الله تعالى: (يجعلون أصابعهم في آذانهم).

عَلاقة الجزئية: قال الله تعالى: (فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن).

عَلاقة الحالِّيَّة: قول الله تعالى: (ففي رحمةِ الله هم فيها خالدون)، وقول الشاعر:

أَلِـمّا على مَعْنٍ فقولا لقبرِه * سَقَتْكَ الغَوادِيْ مَرْبَعًا ثم مَرْبَعًا

عَلاقة المحلِّية: قول الله تعالى: (فليدع ناديه)، (واسأل القرية)، (يقولون بأفواههم).

عَلاقةُ اعتبارِ ما كان: قول الله تعالى: (وآتوا اليتامَى أموالَهم). (في الرِّقة ربع العشر)، (ليس فيما دون خمسِ أَواق صدقةٌ)، قال بعض العلماء: (لَا نَعْلَمُ هَذَا الِاسْمَ فِي الْكَلَامِ المعْقُولِ عِنْدَ الْعَرَبِ يَقَعُ إِلَّا عَلَى الْوَرِقِ المنْقُوشَةِ ذَاتِ السِّكَّةِ السَّائِرَةِ فِي النَّاسِ، وَكَذَلِكَ الْأَوَاقِيُّ لَيْسَ مَعْنَاهَا إِلَّا الدَّرَاهِمُ، كُلُّ أُوقِيَّةٍ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا)، فنقول إن الحلي وَرِقٌ باعتبار ما كان، والقرينة الأحاديث الواردة في وجوب زكاة الحلي، نحو(أتؤدين زكاة هذا)، وغيرها.

عَلاقةُ اعتبارِ ما يكون: قال الله تعالى: (إني أراني أعصِرُ خمرًا)، (إنك ميت وإنهم ميتون)، وأيضًا: عَجَنتُ الخبزَ.

واسم العَلاقة في المجاز المرسل؛ يستفاد من وصف الكلمة المجازية المذكورة في الجملة.

فمثلًا كلمة (رزقًا)، الرزق مسبَّبُ الغَيثِ، إذًا؛ العَلاقة مسبَّبية. كلمةُ (مَعْنٍ)، معن هو الحالُّ في القبر، إذًا؛ العَلاقة حالِّيَّة. كلمة (اليتامى)، كانوا يتامى، لكنَّهم اليومَ راشدون، إذًا؛ هم يتامى باعتبار ما كانوا عليه من قبل، إذًا؛ العلاقة باعتبار ما كان، ... وهكذا.

والقصد من معرفة العلاقة؛ معرفةُ سبب اختيارنا لهذه الكلمة المجازية دون غيرها.

ويبلغ سحرُ البيان مداهُ، بقدر قوة هذه العَلاقة. فمثلًا؛ أريد أن أصف رجلًا أكولاً. فلو قلت: فلان بَطْن، أو: فلان فَمٌ، أيهما أقوى بيانًا، وأوضح في التصوير؟ أيهما ألصق بالأكل؟ البطن، أو الفم.

ما وجه الجمال في المجاز المرسل؟

الجمال في المجاز المرسل؛ أنه يؤدي المعنى المقصود بإيجاز، وبصورة لا تخلو من المبالغة، وأحيانًا يُضيفُ معنًى جديدًا، ويُصوِّره خيرَ تصوير.

مثال: فلان سريع التأثُّر بالوشاية، كيف تستعمِلُ فيه المجاز المرسل؟ إذا كنت ماهراً في حسن اختيار العلاقة؛ ستقول: فلانٌ أُذنٌ. بدلًا من: فلانٌ سمّاع للكذب. ما الجديدُ؟ أدَّيتَ المعنَى المقصودَ بإيجازٍ، بالغتَ في الوصف، وصوَّرته تصويرًا رائعًا.

انتهينا من قسم المجاز المفرد بنوعيه الاستعارة والمرسل، والحمد لله.

ولنبدأ الآن بالقسم الآخِر، وهو المجاز المركب. بنوعيه الاستعارةِ والمرسلِ، ولنبدأ بالأول منهما:

المجاز المركَّب بالاستعارة، وتعريفه: جملة استعملت في غير المعنى الذي وضعت له لعلاقةِ المشابَهةِ مع قرينةٍ مانعةٍ من المعنى الأصليِّ.

وضابطها: جميعُ الأمثالِ السائرةِ؛ نثرًا، ونظمًا.

من المنثور قولهم في شطر بيت من الكامل:

قَطَعتْ جَهِيزةُ قولَ كلِّ خَطِيبِ

ومن المنظوم قول ابن برد:

متى يَبلُغُ البُيانُ يوماً تمامَه * إذا كنتَ تَبنِيهِ وغيرُك يَهدِمُ

وأنموذج السؤال عنها هكذا:

س: كيف أجرينا الاستعارة في المثال الأول؟

وأنموذج الإجابة هكذا:

ج: شبهنا حال كل من يأتي بالقول الفصل في موطن الخلاف بحال تلك الجارية التي أتت بنبأٍ قَطَعَ الخلافَ بشأنِ الصلحِ بين قبيلتين في قضيةِ قتل، بجامع أن كلًّا منهما حسم الخلافَ. ثم استعرنا ذلك التركيب الذي قيل في قصة جهيزة، وصار مثلًا سائرًا من يومه.

س: كيف أجرينا الاستعارة في المثال الثاني؟

ج: شبهنا حال كل من يجتهد في إصلاح أحوال الناس ثم يأتي غيرُه ليُفسِدَ ما أصلحَهُ؛ شبهناه بحال من يبني عِمارة؛ حتى إذا أوشك على الانتهاء منها؛ جاء من يَهدِمُها من

أساسها. ثم حذفنا المشبهَ، واستعرنا ذلك التركيب الدال على المشبه به؛ استعرناه للمشبه، بجامع أن كلًّا منهما لم يستطع الوصول إلى غايته لوجود من يَسعَى للإفساد.

والمقصود بكلمة (جامع) في الاستعارة التمثيلية: وجه الشبه بينهما.

ودائمًا تكون العلاقة بين الجملة المستعارة(المثَل)والحالة التي استعيرت لها الجملة: المشابهة.

وكذلك القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي من الجملة (المثل)؛ دائمًا تكون: الحالية.

انتهينا من الاستعارة التمثيلية، وإلى النوع الآخر من المجاز المركب، وهو:

المجاز المركَّب المرسل. وتعريفه: جملةٌ استعملت في غير المعنى التي وضعت له، لعلاقةٍ مرسلة (غيـرِ المشابَهةِ)، مع قرينةٍ مانعةٍ من المعنى الأصلي.

ويقع في الخبر المرادِ به الإنشاءُ، والعكسِ، وفي كلِّ تركيبٍ لم يُرَدْ منه إفادةُ الحكمِ، ولا لازمُه؛ فهو مَجاز، كإرادة التحسرِ، والفرحِ، والشماتةِ، والاستعطافِ، والحماسةِ، والهجاءِ والرثاءِ، ونحوِه. كما تقدم في أغراض الكلام، في الإسناد الخبري، والاستفهام غيرِ الحقيقي.

وعلاقاته: إما سببيةٌ، أو مسبَّبيةٌ، أو لزوميةٌ غالبًا.

أمثلة:

١ – قال الشافعي رحمه الله....

استعملنا جملة خبرية، وهي(رحمه الله)؛ ولم نرد أصل ما وضعت له، وهو الإخبار برحمة الله له، لأنه إخبار بما لم يخبرنا الله به، وإنما أردنا غير الأصل وهو الإنشاء، أي (اللهم ارحمه). والعَلاقة الرجاء، أي: إنني لما قلت: اللهم ارحمه؛ رجوتُ القبول،

فأَخبرْتُ -متفائلًا- بمسألتي، وهي رحمةُ الله. والقرينة حالية، وهي: مسلَّمَةُ أنَّ رحمةَ الله للموتى؛ مِن علمِ الغيبِ الذي لا يَعلَمُه إلا اللهُ اتفاقًا.

٢- قوله ﷺ: (من كذب عليَّ متعمدًا؛ فليتبوأ مقعدَه من النار).

استعملت جملةٌ إنشائية، وهي(فليتبوأ)؛ ولم يُرد أصلُ ما وُضِعت له، وهو الأمر باتخاذ مقعد في النار، لأن من تعمد الكذب على رسول الله ﷺ؛ فقد أعد الله له مقعدًا في النار، فالمراد إذًا: فقد تبوأ لنفسه ذلك المقعد، ونسبة الفعل إليه فيه غرض بلاغي. والعلاقة والقرينة:

٣- قول الشاعر محمود سامي البارودي:

ذهب الصِّبا وتولَّتِ الأيامُ * فعلى الصبا وعلى الزمان سلامُ

استعمل الشاعر جملة خبرية لا لغرض الإفادة بمدلولها، ولكن لغرض آخر، وهو التحسر والحزن على تلك الأيام الجميلة التي لن تعود أبدًا. فاستعمال الجملة هنا في غير معناها الأصلي؛ مجاز مركب مرسل، ولمَّا لزِم مِن خبرٍ كهذا؛ الحزنُ؛ كانت العَلاقةُ بين الخبرِ وأثرِه؛ وهي التحسرُ؛ اللزوميةَ. والقرينة التي دلت على مراد الشاعر؛ هي الشطر الثاني.

انتهينا من المرسل المركب. وبه نكون قد انتهينا من المجاز المستوى الأول.

ولا بأس بشرح المجاز من خلال ألفاظ النظم باختصار. وقراءتُه اختيارية:

(ثُمَّ المَجَازُ)أقسامه اثنان(فَافْهَمَـ)ـنْ ذلك يا طالب العلم. هما:(مُفْرَدٌ اوْ مُرَكَّبُ. وَ)كلٌّ منهما؛(تَارَةً) يَكُونُ مُرْسَلاً)أي مجازًا مفردًا مرسلًا، ومجازًا مركبًا مرسلًا(أَوْ)كلٌّ منهما؛ أي من المفرد والمركب؛ تارة يكون مجازًا مفردًا بالـ(استِعَارَهْ(ةً)، أو مجازًا مركبًا بالاستعارة، وحقيقة الاستعارة؛ أنه(يُجْعَلُ)هـ(ـذَا)المستعارُ له، وهو الرجل في نحو: رأيت أسدًا يحمل سيفًا؛ هو عين(ذَاكَ)المستعار منه،

وهو الأسد الحقيقي. فاجعل الرجلَ هو عينَ الأسدِ الحقيقي(ادِّعَاءً)لا حقيقة. ومعنى(أَوِّلَهْ)أي: وأوِّلْ كلامَك بالادِّعاء، حتى تخرجَ مِن حد الكذب، بأنك تدعي كونه أسدًا لا حقيقة. وعند التأمل فالاستعارة بل المجاز كله ليس كذبًا، بدليل القرينة في الكلام، فقولي (يحمل سيفًا) تدل على عدم إرادة الأسد المعروف. ثم تكلم الناظم عن طرفي الاستعارة باعتبار كونهما أصليين أو مشتقين، فقال: (وَهْيَ)أي الكلمة المستعارة(إِنِ)كانت(اسْمَ جِنْسٍ)جامد غيرِ مشتق، أو كانت مصدرًا(اسْـتُعِيرَ لَهْ) للمستعار له؛ فالاستعارة(أَصْلِيَّةٌ أَوْ لا)؛ بأن كانت الكلمةُ المستعارةُ اسمًا مشتقًّا كالأفعال وأشباهها(فَـ)ـالاستعارة(تَابِعِيَّةْ(ةٌ)مثال الأصلية: فقلتُ إليك إنَّ مَعِيْ السَّحَابا. فالسحاب اسم جنس، ومثله، نحو: لفظ البحر والبد والأسد. ومثال التبعية: (ولما سكت عن موسى الغضب)وسكت مشتق من السكوت(وَ)الاستعارة(إِنْ تَكُنْ ضِدّاً)باستعارة كلمة في ضد معناها؛ فاسمها(تَهَكُّمِيَّةْ(ةٌ))كاستعارة البشارة في الإنذار، في نحو قوله تعالى(فبشرهم بعذاب أليم)أصلها فأنذرهم بعذاب أليم).

أما الأسلوب الثالث من أساليب البيان؛ فهو:

الكناية

وفيه قال الناظم:

وَمَا بِهِ لاَزِمُ مَعْنًى وَهْوَ لا * مُمْتَنِعًا كِنَايَةٌ فَاقْسِمْ إِلَى
إِرَادَةِ النِّسْبَةِ أَوْ نَفْسِ الصِّفَهْ * أَوْ غَيْرِ هَذَيْنَ اجْتَهِدْ أَنْ تَعْرِفَهْ

الكناية لغة: ما يتكلم به الإنسان ويريد به غيره. تقول كَنَيتُ وكَنَوتُ بطول سَيفهِ عن طول قامته، أي لم أصرِّح بطول قامته.

أما اصطلاحًا: فهو لفظ أطلق، وأريد به لازمُ معناه، لقرينة غير مانعة من إرادة ذلك المعنى. وهو أبلغ من التصريح.

مثال: زيد طويل النِّجاد. (بالكسر، أي طويل حمائل السيف. والحمائل جمع حَميلة، وحِمالة: عِلاقة السيف، وهو ما يوضع على كتف الرجل من حزام ليعلق به سيفه، كحزام البندقية، وعادة ما يكون من جلد، ويزركش).

وطُول النِّجاد؛ لفظ أُطلق؛ وأُريد به لازم معناه، وهو طُول القامة، ولازمُ طول القامة – عادةً– الشجاعةُ أو القوة. فعدل عن التصريح بهذه الصفة إلى الإشارة إليها، والكنايةِ عنها بطول النِّجاد، وإن لم يكن له نِجاد.

وعدم وجود النِّجاد الحقيقي عند الممدوح(زيد)؛ قرينةٌ صارفة إلى المكنيِّ عنه(طول القامة)، ولكنْ لا مانع من أن يكون المتكلم؛ أراد المكنيَّ به أيضًا(طول النجاد). فيجتمع في الممدوح الأمران. بخلاف المجاز فلا يمكن اجتماع المعنى الأصلي والمجازي.

مثال ثانٍ: فلانة بعيدةُ مَهوَى القُرْط. أي جِيدُها طويل، ولا مانع من إرادة طولِ القُرْط.

ومثال آخر: قول الخنساء ل:

طويل النِّجاد رفيع العماد * كثيرُ الرَّماد إذا ما شَتا

رفيع العِماد (عمود الخيمة)؛ كناية عن علوِّ الشأن، وكثير الرماد؛ كناية عن الكرم، ولا مانع من إرادة المعانيْ الأصليةِ لهذه الألفاظ.

وأحيانًا يمتنع المعنى، ويَتعين لازمه، نحو: (المجدُ بين ثوبيك، والكرم ملء برديك)، فلا يمكن تصور المعنويات (المجدِ والكرمِ) تخالطُ المحسوساتِ (الثيابَ والبُرُد).

وفي هذا النوع من الكناية؛ أي تعذُّرُ اجتماع المعنى ولازمِه؛ أو المكنيِّ به، والمكنيِّ عنه؛ يُمثِّل بعض البيانيين – هداهم الله – بقوله تعالى: (والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه)، و(الرحمنُ على العرش استوى)؛ وذلك بناء على تعطيلهم لهاتين الصفتين: الذاتية، والفعلية. ولا شك في بطلان هذا التمثيل. بل يتعين فيهما المعنى الأصليُّ المكنيُّ به(إثباتُ اليمين لله، وإثباتُ علوِّ

الله على عَرشه)، ويتعينُ لازمُ المعنى المكنيِّ عنه(القوة والغلبة والقهر). ونرد عليهم بنفس طريقة استدلالهم، فنقول: كما أنه يَتعذَّر تصوُّرُ اجتماعِ المعنى ولازمه في (المجدُ بين ثوبيك)؛ كذلك يَتعذَّر تَصوُّرُ افتراق المعنى ولازمه في (والسموات مطويات بيمينه). وحينئذٍ يمكن أن يُقال: إنه متى تَعيَّن، أو أُريدَ المعنى ولازمُه في آنٍ واحدٍ؛ أو لا قرينةَ تدُل على الكناية؛ فلا كنايةَ أَصْلًا.

لَطيفة: مرَّ بنا في المعاني في أول أنواعه (الإسنادِ الخبري في أغراضِ الخبر): فائدةُ الخبر، ولازمُ فائدةِ الخبر. وهنا في البيان في آخرِ أنواعِه (الكنايةِ): معنى اللفظِ، ولازمُ معنى اللفظِ.

ثم إن المكنيَّ من حيث الأشياءُ التي يطلب بها؛ ثلاثةُ أنواع:

نوعٌ يطلب به النسبة والاختصاص، ونوعٌ يطلب به الصفةُ، وثالثٌ يطلب به الموصوف.

أما النوعُ الذي يطلب به النسبةُ والاختصاص، نحو: (المجد بين ثوبيه، والكرم مِلْءُ بُردَيه). أردتَ أن تَنسِب المجدَ، والكرمَ إلى زيد، فعدلت عن ذلك ونسبتهما إلى ما هو مختص به، وهو ثوباه وبُرداه. ولم تنسِبه فقط إلى شيء اتصل به؛ بل أضفتَ معنىً جديدًا وهو اختصاصه بهتين الصفتين دون غيره، باعتبار (أل) هنا استغراقيةً.

فإذا سئلت: أين المكنيُّ به، وعنه، وما نوعُه في (المجد بين يديه)؟

فالجواب: المكني به: وصف المجد بأنه بين ثوبيه، والمكني عنه كرم زيد، ونوعه: نسبة واختصاص. كنينا عن عظمته بنسبة المجد إلى ثوبيه، واختصاص المجد به.

ومثله قولُ زيادِ الأعجم (ابن سليم العبدي، مولاهم، في لسانه عجمة تابعي من فحول الشعراء حديثه في السنن):

إن السماحة والمروءة والندى * في قُبَّة ضُربت على ابن الحشْرَج

سؤال: أين المكنيُّ عنه في البيت وما نوعُه؟

جواب: المكنيُّ عنه سماحة ومروءةُ ابنِ الحشرج. ونوعه: نسبة واختصاص. كنينا عن سماحته؛ بنسبة السماحة إلى قبة خيمته.

وأما النوع الثاني الذي يطلب به الصفة، فنقول: الـمَكْنِيُّ عنه صفة، نحو: (طويل النجاد، رفيعُ العماد، كثير الرماد، بعيدة مَهوَى القُرْط)، كنينا بهذه الألفاظ عن الشجاعة، وعلوِّ الشأن، والكرمِ. فهذه صفاتٌ طلبناها بتلك الكنايات.

سؤال: أين المكنيُّ به وعنه في (بعيدة مَهوى القرط)؟ وما نوعه؟

جواب: المكني به: بُعدُ مَهوى القُرْطِ، والمكني عنه: طولُ جِيدِها، ونوعُه: صفة.

وأما النوع الثالث؛ وهو الذي قال فيه الناظم: (أَوْ غَيْرِ هَذَيْنَ اجْتَهِدْ أَنْ تَعْرِفَهْ)؛ فهو الذي يطلب به الموصوف، فنقول: المكنيُّ عنه موصوف، نحو:

فلما شربناها ودَبَّ دَبيبُها * إلى موطنِ الأسرارِ قُلتُ لها قفي

سؤال: أين المكنيُّ به، والمكنيُّ عنه، وما نوعه؟

جواب: المكنيُّ به: موطن الأسرار، والمكنيُّ عنه: القلب، ونوعه: موصوف.

ما الفرق بين الكناية والتعريض؟

التعريض نوع من الكناية، وهو: ذكر أشياء يُنَبِّه ذِكْرُهَا عَلى أشباهها، أو أضدادها، أو ما يخالفها، فيكون ذكرُها مشيرًا بتعريضٍ إلى تِلْكَ الأشباه، أو الأضداد، أو المخالفات، ولا يُوجَّه الخطاب للمستمع مباشرة، كقولك لرجل مفسد: (خير الناس أنفعهم للناس). رأيت صدودًا من بعض الناس عن طلب العلم، فخاطبتهم بحديث: (من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين). رأيت رجلًا يعيب الصالحين والمتميزين، والعيب فيه هو، فقلت له:

ومَن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ * يجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

وعند تأمل الأمثلة السابقة؛ ستجد أن كثيرًا منها أمثالٌ سائرةٌ على ألسنة الناس، فهي إذًا؛ استعارةٌ تمثيليةٌ غالبًا؛ جيء بها لغرض التعريض بالمخاطب.

من أغراض الكناية:

إما الإيضاح، نحو: طويل النِّجاد، لإيضاح طول قامته، وفلان عريض اللِّحاف، لضخامته.

وإما الاختصار، كقول إبراهيم بن هَرْمَة (ت ١٤٥هـ من شعراء العصر العباسي) :

وإن يك فيَّ مِن عَيبٍ فإني * جبانُ الكلبِ مَهزولُ الفَصِيلِ

أي مقصود في داره، كريمٌ، مشهورٌ بقِرَى الضيف، يَنحَر الإبلَ، فيبقى الفصيلُ مهزولاً، لا أمَّ له تُرضِعُه.

وإما الصون والستر، نحو: أهل الدار كناية عن الزوجة.

وإما الاستهجان للفظ، نحو: فالآن باشروهن، وأتى أهله، مس امرأته، وحديث: (من تعزى بعزاء الجاهلية؛ فليَعضَضْ بِهَنِ أبيه).

الفَنُّ الثَّالِثُ: عِلْمُ البَدِيعِ

البديع؛ فعيل بمعنى مفعول، أي: المختَرَع، والموجَد لا على مثال سابق، مأخوذ من بَدَع الشيء (كنفع)، وأَبدَعه. والله بديع السموات؛ أي مُبدِعها، اسم فاعل. كسميع وبصير وقدير.

واصطلاحاً؛ كما عرَّفه الناظم بقوله:

عِلْمُ البَدِيعِ وَهْوَ تَحْسِيْنُ الكَلاَمْ * بَعْدَ رِعَايَةِ الْوُضُوحِـ)ـيْ(وَالْمَقَامْ

أي: علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد مراعاة قواعد عِلْمَي البيان(الوضوح)، والمعاني(المقام). وعلمُ البديع أخصُّ الفنون الثلاثة، بمعنى أنه لا يُضطرُّ إليه البياني والبلاغي، وأوسعُها دائرةً، بمعنى أن صاحبه لا بد أن يكون متقنًا لذينك العِلْمين، والمعاني أعمُّها، بمعنى أنه لا بد منه لعالم البيان والبديع، وأضيقُها دائرةً، بمعنى أنه لا يحتاج إلى علمي البيان والبديع، فضلًا عن اضطراره إليهما).

قال أبو جعفر الأندلسي: عَلاقة الفنون الثلاثة ببعضها؛ كعلاقة الإنسان بالنطق والحياة. فالإنسان علم البديع، والنطق علم البيان والحياة علم المعاني. فلا إنسان بدونهما، ولا نطق بدون حياة، وتوجد الحياة بدونهما.

انظر عقود الجمان، ص: ١٠٤.

والمقصود بمعرفة وجوه تحسين الكلام؛ تعلُّم أعدادها وتفاصيلها.

ووجوه تحسين الكلام ضربان: إما تحسين وتزيين للفظ فقط، ويمكن أن نسمِّيَه (البديعُ اللفظيُّ). وهذا متى تغير، زال الشكل المطلوب، نحو قول الله تعالى:

(ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة).

وإما تحسين وتزيين للمعنى، ويمكن تسميتَه بـ(ـالبديع المعنوي). وهذا مهما تغيرت ألفاظه؛ يَبقَى حسنُه في معناه، نحو قول المتنبي:

إذا أَمطَرتْ منهم ومنك سَحابةٌ * فوابلُهم طَلٌّ وطَلُّكَ وابلُ

وهذا فيه من محسنات المعنى ما يعرف بالعكس، وسيأتي.

والعلماء مجمعون على أن التكلف، والابتذال في هذا الفن؛ ينقص من رونقه وجماله.

ولنبدأ الآن بالتعرف على وجوه التحسين اللفظية والمعنوية وفق ما جاء في النظم:

ضَرْبَانِ لَفْظيٌّ كَتَجْنيسٍ و رَدّ * وَسَجْعٍ اوْ قَلْبٍ وَتَشْرِيعٍ وَرَدْ

والمعنويُّ .... * ....

أي البديع نوعان: لفظيٌّ، ومعنويٌّ، أما اللفظي فله أنواعٌ عِدةٌ، ذكر الناظم منها خمسة، هي: التجنيس والرَّدُّ، والسَجْع، والقَلْب، والتَّشريع. فلنتعرف عليها:

أما التجنيس، أو الجناس؛ فهو أن يتشابه اللفظان نطقًا، ويختلفا معنًى، وهو نوعان تام وغيرُ تام. والتام ما اتفق فيه اللفظان في أربعة أمور: نوع الحروف، وشكلها، وعددها، وترتيبها. كآية (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة).

وغير التام ما اختلف فيه اللفظان في واحد من هذه الأمور الأربعة، نحو: (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر).

وأما السجع؛ فهو: توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، وأفضله ما تساوت جُمَلُه، نحو قولِ الله تعالى: (في سدرٍ مخضودٍ وطلحٍ منضودٍ وظلٍّ ممدودٍ).

وأما الرَّدُّ؛ فهو: رد العَجُز إلى الصَّدْر، أو آخر الكلام إلى أوله، نحو قول الله تعالى: (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)، (استغفروا ربكم إنه كان غفّارًا).

وأما القلب؛ فهو ما لا يستحيل بالانعكاس، أي يُقرأ النص طردًا وعكسًا، فلا يتغير لفظًا ولا معنًى، نحوُ قولِ الله تعالى: (وربَّك فكبِّر)، (كلٌّ في فلك)، ولا ثالث لهما في كتاب الله العظيم، ونحو: كبِّرْ رجاءَ أجرِ ربِّك، ونحو: كُنْ كما أمكنَك، ونحو: سِرْ فلا كَبا بك الفرسُ، ونحو:

مَودَّتُه تَدومُ لكلِّ هَولٍ * وهلْ كلٌّ مودتُه تدومُ

وأما التشريع؛ فهو: بناء أبيات القصيدة على قافيتين، يَصِحُّ المعنى عند الوقوفِ على كل منهما، فالقافية الأولى نحو:

يا خاطبَ الدُّنيا الدنيَّةِ إنها * شَرَكُ الرَّدَى وقَرارةُ الأقذارِ

دارٌ متَى ما أَضحَكَتْ في يومِها * أَبكَتْ غدًا تبًّا لها مِن دارِ

والقافية الثانية نحو:

يا خاطب الدنيا الدنيـْ * ـيَةِ إنها شَرَكُ الردَى

دارٌ متى ما أضحكَتْ * في يومِها أبكتْ غَدَاْ

انتهينا من معرفة وجوه التحسين اللفظي، فإلى معرفة وجوه التحسين المعنوي: